# أثر دخول اللغة العربية على بلاد النوبة (السودان) في القرون الوسطى

د. محمد آدم عبد الرحمن حامد

## مستخلص:

تناقش هذه الدراسة موضوع، أثر دخول اللغة العربية على بلاد النوبة (السودان) في القرون الوسطى، وهي دراسة تُعنى فقط بتأثير اللغة العربية على الثقافة النوبية، من حيث تغير اللسان النوبي الناطق باللغة النوبية، إلى التحدث باللغة العربية وما تبع ذلك من أثر على بلاد النوبة، ثم تتناول الدراسة تأثير اللغة العربية العربية على الأسماء النوبية التي تغيرت فأصبحت أسماء عربية خالصة، ثم تدلف الدراسة إلى جانب تاريخي مهم جداً في تاريخ بلاد النوبة، وهو دور اللغة العربية في كتابة وتدوين تاريخ السودان في العصور الوسطى، حيث استعرضت الورقة نماذج من المؤلفات التي كتبت باللغة العربية في العصور الوسطى والتي تحدث كتابها عن تاريخ النوبة الشعب، والنوبة الدولة، وعلاقتها بالعالم العربي ومدى تأثير العرب على الثقافة النوبية. ولما كان الحديث عن اللغة العربية وهي لغة دخيلة على النوبة كان لزاماً علينا إيراد معلومات عن تاريخ دخول العرب ولغتهم إلى بلاد النوبة، وكيف أثرت اللغة العربية على النوبيين، وأيضاً تولت الدراسة مسألة التعريف بمصطلح السودان في معناها وتاريخه، وتحديد الفترة الزمانية، والمكانية للمصطلح، بالإضافة إلى التعريف بمصطلح النوبة.

منهج الدراسة: اتبعت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي، وذلك عن طريق جمع المعلومات من مصادرها الأولية، والثناوية وتناولها بالتحليل.

النتائج: خلُصت الدراسة إلى عدد من النتائج منها، أن اللغة العربية كانت ولا تزال لها تأثير كبير في تاريخ السودان بشتى ضروبه. ساعدت اللغة العربية كتابة وتدوين أحداث أهم فترة في تاريخ السودان. أن اللغة العربية انتشرت في السودان بصورة بطيئة حتى سيطرت فيما بعد بصورة شاملة.

التوصيات: توصي الدراسة بضرورة إلقاء المزيد من الضوء على وضع اللغة العربية في السودان، ومدى تأثيرها على الثقافة السودانية. كما توصي الدراسة بإجراء بعض الدراسات حول المؤلفات العربية التي كتبت عن السودان في العصور الوسطى، وتناولها بالتنقيح والتحليل لأنها تحمل في طياتها معلومات تتعلق بالهوية السودانية.

**مقدمة:**

إن دخول اللغة العربية إلى السودان يعود إلى وقت مبكر من تاريخ بلاد النوبة، ربما إلى ما قبل الإسلام، لكن المهم في الأمر أن اللغة العربية لم يكن لها تأثير حينها بنفس القدر الذي استأثرت به في القرون الوسطى. وقد لعبت اللغة العربية دوراً فعالاً في تاريخ السودان بمجرد دخولها، وذلك من واقع التغيير الملموس الذي صاحب دخولها في العديد من النواحي التي تتعلق ببلاد النوبة.

تمكنت اللغة العربية من الإنتشار في السودان بطريقة سلمية لم يفرضها أصحابها على سكان بلاد النوبة، بل نجد أن النوبيين أخذوا اللغة العربية عن العرب الوافدين عن طريق التقليد الأعمى حتى تغير لسانهم ليصير لساناً عربياً مبيناً، والحديث عن مدى تأثير اللغة العربية على السودان يطول ولا يمكن حصره في هذه الورقة فقط إذ تحتاج الدراسة إلى كم هائل من الدراسات، لأن تأثير اللغة العربية كان شاملاً في حياة المجتمع النوبي، فنجد أثرها في الثقافة، والسياسة، والدين، بل حتى في الجانب الاجتماعي في تاريخ السودان، حيث صاحب دخولها تغيراً جوهرياً في الهوية السودانية، وبناءاً على تحدث اللغة العربية صنف السودانيون

كمجتمع من المجتمعات العربية، فقد منحته اللغة العربية الهوية الثقافية العربية، التي أضحت فيما بعد أهم علامة مميزة للمجتمع السوداني الذي يتربع وسط العالم الأفريقي، وهذا المقام من الحديث يطول ويطول، لذلك سوف تكتفي الدراسة بتناول بعض مظاهر أثر اللغة العربية على السودان في القرون الوسطى، ومدى تقبل السودانيين للغة العربية وما ترتب عليه من نتائج.

## تعريف السودان:

لفظة السودان وردت أول ما وردت في بعض المصادر العربية لتعني كل السود في العالم القديم، ولم يقصد بها – في البداية – أقاليم محددة في إفريقيا أو أي بلد آخر، وأصل الكلمة من السواد ومفردها أسود وتجمع على سود، وأضاف الكتاب العرب الألف والنون لتصير (السودان) في مقابل البيض(البيضان). فالأديب الجاحظ – مثلاً يقول بأن لفظة السودان تشمل كل السود بما في ذلك بعض أهل الهند، والسند، وسرنديب، والحبشة، والنوبة، والزنج، وأن في السودان السود، والحمر ولكن ليس لديهم اسم سوى السودان١، ويقول ابن خلدون بأن الحبشة،والزنج، والسودان، أسماء مترادفة على الأمم المتغيرة بالسواد، وليست هذه الأسماء لهم من أجل انتسابهم لرجل أسود ٢. وقد حدد المسعودي أوجه الاختلاف بين سودان الهند، وسودان إفريقيا من ناحية الألوان ونعومة الشعر والذكاء إلى غير ذلك(٣) من الواضح أن مصطلح السودان كان يطلق على كل السود القاطنين جنوب مصر، ومن بينهم النوبة الذين استقبلوا الهجرات العربية التي أثرت عليهم لغوياً، واجتماعياً. لكن في الفترة ما بين القرنين الخامس عشر والعشرين الميلاديين أحدث بعض المؤرخين الهواة تغييراً في المصطلح (السودان) إذ صاروا يطلقونه على بعض السود في إفريقيا كالحسن بن الوزان ومن بعده ترمنجهام مثلاً ٤، ولم يظهر اسم السودان بعد ذلك إلا بعد أن سيطر محمد علي باشا على البلاد وصار يطلق عليه اسم (السودان المصري) ٥.

## تعريف بلاد النوبة:

يطلق لفظ بلاد النوبة علي ذلك الجزء من وادي النيل الممتد على جانبي نهر النيل ما بين مدينتي أسوان شمالاً وملتقى النيلين جنوباً.(٦) وهي بالطبع الأوطان الرئيسة للنوبيين وتمتد جنوباً حتى منطقة الدبة وكورتي،(٧) وقد شملت بلاد النوبة في العصور الوسطى أجزاءً من وادي النيل الممتد على جانبي النيل قرب أسوان إلى جنوبي التقاء النيلين الأبيض والأزرق، وذلك إلى مناطق من حوض النيل الأزرق والأتبرا حتى أطراف الحبشة شرقاً، وإقليم كردفان ودارفور غرباً.(٨) وهي بلاد متسعة الأرجاء، رحبة الجوانب، حدها من الغرب البحر المحيط الغربي، ومن الجنوب الخراب مما يلي خط الإستواء، ومن الشرق بحر القلزم، ومن الشمال البراري الممتدة فيما بين الديار المصرية وأرض برقة وبلاد البربر من جنوبي المغرب إلى البحر المحيط.(٩)

## طرق دخول العرب إلى السودان:

يعود تاريخ الصلات بين الجزيرة العربية والسودان إلى فترة ما قبل ظهور الإسلام بمدة ليست بالقصيرة، وقد أخذت هذه الصلات طريقها إلى بلاد السودان عن ثلاث طرق رئيسة: الأول من شمال الجزيرة العربية، عبر صحراء سيناء من مصر ومن ثم إلى السودان؛ أما الثاني فكان من غرب الجزيرة العربية عبر مضيق باب المندب إلى الحبشة ومن هناك نحو الغرب، وأيضاً عبر البحر الأحمر، حيث أن سهولة الملاحة النسبية في الشق الجنوبي منه ساعدت على هجرات العرب. (١٠) وهذه حقيقة تؤيدها الجغرافية و الروايات التاريخية. ذلك أن البحر الأحمر لم يكن في وقت من الأوقات حاجزاً يمنع الاتصال بين شواطئه الأسيوية العربية وشواطئه الإفريقية، حيث لا يزيد عرض البحر عن المائة والعشرين من الآميال في أتجاه السودان، وليس من الصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة.(١١) أما في الجنوب يضيق البحر الأحمر جداً عند بوغاز باب المندب حتى لا يزيد على عشرة أميال وهو الطريق الذي سلكته السلالات والأجناس العربية إلى القارة الأفريقية منذ زمنٍ بعيد.(١٢)

أما الطريق الشمالي وهو طريق برزخ السويس الذي لعب دوراً مهماً في تاريخ العلاقات بين سكان الجزيرة العربية وسكان وادي النيل الأسفل منذ فجر التاريخ.(١٣) إن العرب في الأوقات الإسلامية قد سلكوا طريقين رئيسيين للدخول إلى السودان، منها ما ذكر سابقاً وهو طريق سيناء عبر مصر، ويضيف يوسف فضل أن التحركات عبر هذا الطريق قد وثقت بصورة نسبية أفضل، ويرى أن نجاح تعريب و أسلمة السودان

تمت بصورة رئيسة عبر هذا الطريق. أما الطريق الثاني فقد كان عبر عبور البحر الأحمر لكن هذا الطريق لا يذكر في التقاليد السودانية إلا مُلماً حيث اعتبره علماء الأنساب الطريق الرئيس الذي سلكه أجداد العرب من الحجاز وقد شاهد كل من إبن جبير وإبن بطوطة اعداداً كبيرة من الحجيج يستخدمون هذا الطريق من عيذاب إلى جدة في القرون الوسطى.(١٤) لأن الصليبيين في عام ١١٨٣/٥٧٨م بقيادة رينولد دي شاتيون سيد كِرك (Renauld de Châtillon، the Lord of Kerak) هددوا حجاج سيناء لذلك تحولوا إلى طريق عيذاب. ويضيف يوسف فضل في ذكره عن الطريق الثالث طريقة تقليدية فرعية اشتهرت في التقاليد السودانية وقد سمعنا بها منذ الصغر وهي طريقة السفر عبر ما يعرف بالسمبوك(Samb□ks)، وهو نوع من المراكب استخدمه افراد من قبيلة جهينة؛(١٥) إلا أن هذا النوع من طرق السفر محفوف بالكثير من المصاعب، ويعد السمبوك من أخطر أنواع المراكب، إذ كثيراً ما سمعنا بغرق هذا النوع من المراكب لبدائيته في الصنع وكثيراً ما كانت تغرق هذه السنابيك بسبب اكتظاظها بالركاب. خاصة في موسم الحج.

وجد العرب طريقهم إلى بلاد النوبة، على الأقل في شكل مجموعات صغيرة، وإذا خَلّفتْ هذه المجموعات العربية بعض آثارها في هذه البلاد التي وصلت إليها قبل ظهور الإسلام، فإن الهجرات العربية التي أعقبت ظهور الإسلام تركت دماءً عربيةً بين السكان ونشرت لغتها العربية وديانتها الإسلامية في بلاد النوبة.(١٦)

حدثت في بداية القرن السابع الميلادي بعض الأحداث التي أثرت على بلاد النوبة، حيث تغير الوضع العالمي تغيراً دراماتيكياً في ذلك الوقت، ففي عام ٦١٦م اجتاح الفرس بقيادة كسرى الثاني مصر وظلوا متحكمين بها حتى أخرجهم منها البيزنطنيون بعد أن أقاموا فيها لمدة تسع سنوات، وقليلٌ جداً ما هو معروف عن العلاقات بين حكام مصر الفرس الوثنيين الجدد والنوبة، لكن الشيء المهم في الأمر أنه، وسط هذه الصراعات التي كانت دائرة بين أكبر قوتين في العالم القديم وهما الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية ظهر هناك منافس جديد وهم العرب، فقد بدأ النبي محمد صلي الله عليه وسلم الجهاد لنشر الدين الإسلامى الجديد، الذي انتشر بشكل سريع جداً وأظهر العرب كقوة عسكرية يُعمل لها ألف حساب، وفي خلال خمس سنوات من موت محمد (صلي الله عليه وسلم) في عام٦٣٢م خرج الأنصار من رجال القبائل العربية من ما يعرف بغرب الجزيرة العربية، فهزموا الجيش البيزنطي في معركة اليرموك في ٢٠ أغسطس عام ٦٣٦م بينما سددت الجيوش الإسلامية الأخرى ضربة قاضية للفرس في معركة القادسية في فبراير ٦٣٧م العام التالي لمعركة اليرموك، وبسبب هذه الإنتصارات ارتفعت الروح المعنوية للجيوش الإسلامية، فاكتسحت مصر بقيادة عمرو بن العاص في ديسمبر من عام ٦٣٩م لتنهي في عامين ما يفوق الستمائة سنة من حكم الرومان لمصر.(١٧)

هذه الغزوات المتواصلة التي قام بها المسلمون ساعدت في ظهور الإسلام، و زودت العرب برابطة الدين التي أصبحت أساساً لوحدتهم وانجازاتهم السياسية. إنه ظهورٌ تزامن مع ازدياد في عدد السكان في ذلك الوقت دفعهم مجدداً إلى التوسع خارج حدودهم لتحسين أوضاعهم الإقتصادية لكن تحت إدارة وهدف الإسلام وحماسة الدين. وتطور مجال توسع العرب بشكل أوسع. ففي إفريقيا دعم أمير المؤمنيين عمر بن الخطاب عمرو بن العاص لمحاربة البيزنطنيين فهزمهم عمرو وثبت حكم المسلمين على مصر فى عام ٦٤٢م.(١٨) وكان هذا بما لا يقل عن ٣٥٠٠ إلى ٤٠٠٠ رجل من سلاح الفرسان، لكنه دعم بواسطة ٤٠٠٠ أخرين وفي يناير ٦٤٠م وصل الزبير بن العوام مع جيش بلغ عدده حوالي ١٢٠٠٠ رجل، فسقطت عاصمة البيزنطيين الإسكندرية في نوفمبر من عام ٦٤١م وبسقوطها اكتمل فتح مصر وقبل نهاية العام ٦٤١م شهدت الإسكندرية خروج آخر جندي بيزنطي من مصر و أصبح جميع القطر من البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط إلى أسوان ولاية تابعة لخليفة المسلمين.(١٩) مثلت هذه الحملة بقيادة عمرو بن العاص على مصر طلائع الهجرات العربية الكبرى التي شقت طريقها من قلب الجزيرة العربية إلى إفريقية عبر برزخ السويس. ثم أخذت القبائل العربية المختلفة تهاجر منذئذ إلى مصر بانتظام، كما تعاقب الولاة العرب على حكمها وصحب معظم هؤلاء الولاة رجال قبائلهم الذين آثروا الإقامة في مصر، ولم يبرحوها إلى بلاد العرب كما أخذت قبائل كاملة تنتشر في جهات القطر المختلفة من الدلتا في الشمال إلى أقصى جنوب الصعيد.(٢٠)

## بداية التأثير العربي على بلاد النوبة:

أرسل عمرو بن العاص فرقة من الفرسان بقيادة عقبة بن نافع الفهري لفتح النوبة سنة٦٤١م.(٢١) حيث يقول إبن عبد الحكم:" فدخلت خيولهم أرض النوبة صوائف كصوائف الروم".(٢٢) وقد بلغ عدد الجيش الذي أرسله عمرو بن العاص لغزو النوبة حوالي عشرين ألف رجل حتى يتمكنوا من غزو بلاد النوبة المسيحية، وقد شكل هذا العمل أول غزو إسلامي على بلاد النوبة لكن تفاصيل هذه الحملة ناقصة.(٢٣) هذه الحملة كانت أول دخول للعرب في بلاد النوبة ومن خلالها تعرف العرب على جنس جديد ولغة جديدة وهي اللغة العربية.

بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب، خلفه عثمان بن عفان سنة إحدى وثلاثين هجرية، فعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى بدلاً عنه أخوه في الرضاعة، عبد الله بن سعد بن أبي سرح في نفس العام فأصبح بذلك عامل عثمان على مصر. (٢٤) وهنا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الأثر العربي على بلاد النوبة لأن عبد الله بن سعد دخل في حروب مع النوبة وكانت نهايتها عقد هدنة بين الطرفين نظمت شروط التجارة بين البلدين سميت بمعهادة البقط، وقد اختلف العلماء حول لفظ "البقط" فيرى ترمنغهام Trimigham أنه مشتق من اللفظ اليوناني (Pactum) ومعناه الضربية التي تدفع عيناً، أما في اللاتينية (Pactum) فتعني، عهد أو ميثاق أو اتفاق.(٢٥) وقد وردت روايات وتفاصيل كثيرة حول هذا الإتفاق، إلا أن الاتفاق في مجمله يعبر عن مدى اهتمام المسلمين بتأمين حدود مصر الجنوبية واستمرار التجارة عبر الطرق البرية والنيلية، وقد ظلت هذه الاتفاقية تحكم العلاقة بين الطرفين على مدى ستة قرون، وسمح للتجار النوبيين في مصر بمواصلة نشاطهم التجاري بين مصر وبلاد النوبة على أن يعينوا المسلمين بالرجال والخيول ٢٦، بناءاً على هذه المعاهدة فتحت بلاد النوبة للعرب فأقاموا بها وصاهروا النوبة ومن هنا يبدأ الأثر العربي على بلاد النوبة. ويبدو أن المسلمين المجاورين لبلاد النوبة بدأوا في الاستقرار في الأراضي النوبية منذ أيام الأمويين في مصر وامتلكوا تلك الأراضي بشرائها من النوبيين مما جعل ملك النوبة يحتج على ذلك ويطالب بإلغاء البيع بحجة أن البائعين عبيده وخاضعون لسلطانه، لكن البائعين لم يقروا بالعبودية أمام حاكم أسوان فمضى البيع للمواطنين العرب وانقسمت مملكة مريس النوبية إلى قسمين، قسم يقطنه النوبيون الأحرار، وقسم يقطنه النوبيون عبيد الملك ٢٧، وقد نتج عن ذلك أن المنطقة جنوب أسوان حتى الشلال الثاني صارت تعج بالمسلمين العرب من ملاك أراضي وتجار مع وجود جاليات عربية أخرى بدأت في الاستيطان في بلاد مريس منذ بداية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ٢٨. بلا شك ترك هذا التدفق العربي صوب بلاد النوبة تأثيراً عميقاً وسط السكان المحليين يمكن تقسيمه إلى الأتي:

## أثر اللغة العربية على بلاد النوبة في القرون الوسطى:

### التأثير الثقافي:

نتج عن هذا التدفق العربي عملية ثورة ثقافية، كانت محصلتها تعريب وأسلمة الشعب السوداني، وهنالك عمليتان متوازيتان واضحتان في تعريب السودان، الأولى منها لغوية وثقافية اكتسب بها الشعب اللغة العربية وثقافتها، وأصبح النوبة مرتبطين بالنظام القبلي العربي، أما الثانية فكانت عرقية، إذ إمتص السكان الأصليون العناصر العربية الواردة بدرجات مختلفة.٢٩ من الواضح أن الأثر اللغوي هنا يظهر بوضح حيث تحول اللسان النوبي الناطق باللغة النوبية إلى اللغة العربية فأصبح بذلك لسان عربي، وقد إقتصر التغيير اللغوي في اللسان النوبي على منطقة النوبة في شمال السودان فقط في بداية الأمر، مع العلم أن هؤلاء النوبة قد حافظوا على لغتهم المحلية ذات الأصول الأفريقية. ٣٠ غير أن هذه المجموعات النوبية تتحدث اللغة العربية بطلاقة. لم يقتصر التأثير اللغوي على منطقة النوبة في شمال السودان فقط، بل تعداهم إلى شرق السودان وتحديداً بلاد البجة الذين تغير لسانهم الناطق باللغات حامية موروثة من السلف إلى اللسان العربي فأصبحت لغتهم الرئيسية هي اللغة العربية. ٣١ هنا نلاحظ تأثير اللغة العربية على بلاد النوبة في القرون الوسطى بدأ بالتغير في النطق ولغة الخطابة، ورويداً رويداً نجد أن هذا التأثير امتد حتى للكتابة، والتدوين، ومنه إلى الثقافة النوبية التي أصبحت فيما بعد ثقافة عربية بمزيج من الثقافة النوبية القديمة.

أبدى السودانيون مقاومة ضئيلة لعملية التعريب الثقافي في هذه، ولكن برغم قبولهم لها بشكل كبير فإنهم غيروا تركيبتها إلى حد بعيد، ولم يحافظوا

على العنصر السلالي السوداني الأصل، وإنما على قوميتهم في عاداتهم وفي حالة النوبيين والبجة فهولاء تقبلوا اللغة العربية لكنهم حافظوا على لغتهم المحلية. ٣٢

إن تاثير اللغة العربية لم يكن قاصراً على تغير لغة بلاد النوبة فقط، بل ساعدت اللغة العربية كثيراً في نشر العلوم الإسلامية، ونشر التعليم وسط النوبيين، حيث كانت اللغة العربية هي لغة التدريس في الخلاوى (مدارس دينية موجودة إلى اليوم في السودان). ٣٣ ومن أبرز ملامح أثر اللغة العربية على تاريخ بلاد النوبة في القرون الوسطى، ذلك التغير الجزري الذي صاحب استبدال الأسماء النوبية بالأسماء العربية، ولعلنا نلاحظ هذا النوع من الأثر في أسماء الملوك النوبين الذين كانوا يسمون بأسماء مثل؛ قيرقي، وقليدروث، سمامون، كرنبس، برشمبو، وغيرها، وعندما دخلت اللغة العربية بلاد النوبة بدأ النوبيون يسمون مواليدهم بالأسماء العربية، ولعل أشهر شخص طرأ عليه هذا النوع من التغيير هو الملك عبد الله برشمبو، وهو أول أمير نوبي عربي مسلم. ٣٤ ويتضح تأثير اللغة العربية في تركيبة الاسم، حيث نجد أن الاسم الأول عبد الله هو اسم عربي خالص يؤكد على مدى تغلغل اللغة والثقافة العربية وسط النوبة، بينما يحمل الشق الثاني من الاسم برشمبو ملامح اللغة والثقافة النوبية. ويمتد هذا التأثير حتى قيام أول مملكة عربية إسلامية في السودان عام ١٩٠٤م، وهي مملكة الفونج والتي يحمل مؤسسها اسم عمارة دونقس. ٣٥

## أثر اللغة العربية في كتابة وتدوين تاريخ بلاد النوبة:

كان للغة العربية أثراً كبيراً وواضحاً في العديد من المجالات، فمثلاً نجد أن اللغة العربية قد أثرت على اللسان السوداني الذي كان يتحدث اللغة النوبية المحلية، وبدخول العرب إنتشرت اللغة العربية وتبع ذلك تغيراً جزرياً في تاريخ اللغة في السودان كما ذكر سابقاً، فأصبحت اللغة العربية هي لغة التخاطب ولغة الكتابة في السودان منذ دخولها وحتى تاريخه. هنا يتغير تأثير اللغة العربية بعض الشيء، فنجدها قد ساعدت على حفظ وتدوين تاريخ بلاد النوبة في العصور الوسطى، وذلك من خلال المؤلفات الكبيرة التي اختطتها أقلام المؤلفين العرب عن بلاد النوبة أرضاً، وشعباً. فجاءت كتاباتهم غزيرة مليئة بالمعلومات المهمة عن السودان الوسيط حتى أنه لا يمكن دراسة تلك الفترة من تاريخ السودان من دون الرجوع للمصادر العربية التي تناولت تاريخ السودان الوسيط، وبهذا تكون اللغة العربية قد لعبت دوراً رئيسياً في تاريخ السودان بصورة عامة.

## أثر اللغة العربية في كتابة تاريخ النوبة:

من الآثار المهمة التي تركتها اللغة العربية على تاريخ السودان الوسيط، ذلك الكم الهائل من المؤلفات التي كتبت باللغة العربية عن أهم فترة في تاريخ السودان وهي الفترة الوسيطة، وقد استطاع الكتاب والجغرافيون العرب من تدوين تاريخ بلاد النوبة باللغة العربية، فألفوا عدد كبيراً من المراجع والمصادر التي تحدثت عن تاريخ بلاد النوبة وجغرافيتها وسكانها وعلاقتهم بالعرب والعالم الخارجي، كيفما ما كان الأمر فقد ساعدت اللغة العربية في حفظ تاريخ السودان وأهله، وتمثل هذه الكتب العربية مصدراً من أهم مصادر دراسة تاريخ السودان الوسيط، سوف نستعرض نماذج من بعض المؤلفات العربية التي تحدثت عن تاريخ السودان.

ابن حوقل، (ت ٣٥٠هـ/٩٥٦م)، كتاب صورة الأرض، القسم الأول، يعتبر هذا السفر من أهم الأسفار التي تحدثت عن تاريخ بلاد النوبة في بداية علاقتها مع العرب عبر مصر، ويغلب على هذا الكتاب الطابع الجغرافي، حيث أورد فيه الكاتب معلومات مهمة عن جغرافية بلاد النوبة.٣٦

الواقدي، هو محمد ابن عمر الواقدي، ولد بالمدينة سنة ٧٤٧م، درس علم التاريخ والتفسير، واتصل بالبلاط العباسي في عهد الخليفة هارون الرشيد، كتب كتاب، فتوح مصر والإسكندرية، تحدث فيه عن علاقة العرب ببلاد النوبة في القرون الوسطى.٣٧

أحمد ابن سليم الأسواني، كتاب أخبار بلاد النوبة و المقرة وعلوة و البجة و النيل. كتب يوسف فضل حسن، مقالة ضافية عن هذا الكاتب ٣٨ ذكر فيها أن ابن سليم الأسواني،هو عبد الله ابن احمد ابن سليم، الداعية الفاطمي، لا نعرف شيء عن نشأته إذ لم يرد ذكره في مصادر السير والفهارس، أرسله القائد الفاطمي جوهر الصقلي إلى قيرقي ملك المقره في نحو عام ٣٦٥هـ/٩٧٥م ليدعوه إلى الدخول في الإسلام، ويطلب منه أن يفي النوبيون ما عليهم من متأخرات البقط الذي كان

توقف الالتزام به منذ عهد الإخشيدين. في تلك الرحلة زار ابن سليم بلاد المقره، وبلاد علوه، والراجح أنه لم يزر ديار البجه، وعلى غير عادة الرحالة الآخرين، فقد توغل ابن سليم إلى الجنوب حتى بلغ سوبه حاضرة علوه، وكان نتاج تلك الرحلة كتاب، أخبار النوبه والمقره وعلوه و البجه والنيل﴾ ومن عليه و قرب منه من جيرانهم﴾. وقد جمع معلوماته من مؤلفات من سبقوه من الكتاب، ومن مشاهداته أثناء تجواله، أو ما مجمع من الأخبار من الملوك والتجار، وما اطلع عليه من وثائق في قصور ملكي المقره وعلوه وغيرها من المكتبات الرسمية.وهذا الكتاب مفقود، لكن المقريزي (ت.٣٨٦هـ/٩٩٦م) حفظ جزءً منه في كتاب المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار، وكذلك ابن إياس (ت.٩٣٠هـ/١٥٢٤م) في نشق الأزهار في عجائب الأقطار، وابن عبد السلام المنوفي (ت. ٩٣١هـ/١٥٢٥م) في الفيض المديد في أخبار النيل السعيد. ويبدو أن المؤلفين الآخرين قد لخصا ما ورد من شذرات في خطط المقريزي.

المقريزي، هو أحمد ابن علي المقريزي، ولد بالقاهرة سنة ١٣٦٤م، عمل كاتباً بديوان الإنشاء ثم قاضياً، ثم التدريس، بعدها تفرغ للتأليف والكتابة.٣٩ كتب أربعة كتب عن بلاد النوبة في غاية الأهمية كان الأول منها بعنوان: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، وفي هذا الكتاب عرف جيداً ببلاد النوبة وثرواتها ثم تتطرق للحديث عن أشهر حدث تاريخي في بلاد النوبة في القرون الوسطى وهو هدنة البقط التي وُقِعت بين النوبة والعرب المسلمين بقيادة عبد الله ابن السعد ابن أبي السرح.٤٠ أما الكتاب الثاني؛ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، وهو في أربعة أجزاء، جاءت فيها معلومات قيمة عن السودان، وبلاد النوبة، وعن طبيعة العلاقات النوبية العربية في عهد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وهو يؤرخ لمسيرة العلاقات النوبية الأيوبية بصورة واضحة.٤١

لم يكتفِ بهذين الكتابين، فقد كتب كتاباً آخر بعنوان المقفى، وهو كتاب يُعنى بتراجم وأهل مصر أمرائها وعلمائها والقادمين إليها من سائر الأمصار في ألابعة مجلدات، تناول في هذا الكتاب سيرة عبد الحميد العمري، ونزوله بأرض البجة وهم فرع من سكان بلاد النوبة من الناحية الشرقية، وكيف استطاع العمري السيطرة على ارض المعدن ببلاد النوبة.٤٢

تناول المقريزي في كتاباته تلك، موضوع مهم في تاريخ العلاقات النوبية العربية وهو موضوع معاهدة البقط، تلك المعاهدة التي يدور حولها اختلاف شديد في طبيعة بنودها. وقد أورد المقريزي نص هذه المعاهدة كاملاً.كما أورد آراء بعض الكتاب العرب حول هذه المعاهدة.

كتاب فتوح البلدان لكاتبه البلاذري، يُعنى هذا الكتاب، بتاريخ البلدان التي فتحها العرب، وعلى الرغم من أن العرب لم يفتحوا بلاد النوبة، إلا أنه أورد معلومات مهمة حول طبيعة العلاقات بين النوبيين و العرب المسلمين.٤٣

هنالك مؤلفات عربية أخرى، تعد في غاية الأهمية في تاريخ السودان وتعتبر من المصادر الرئيسة لدراسة التاريخ الوسيط في السودان منها: كتاب صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس٤٤ لكاتبه الإدريسي، وهو أبو عبد الله محمد ابن محمد ابن عبد الله ابن إدريس، تلقى العلم بقرطبة، وقد ألف هذا الكتاب وتناول فيه حدود بلاد النوبة في القرون الوسطى، وتتطرق لسكانها ونشاطاتهم، ووصف ماء النيل بالسودان، وأورد معلومات جيدة عن بلاد النوبة.٤٥

المسعودي، أبي الحسن علي ابن الحسين ابن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول، بيروت، ١٩٧٣. وذكر المسعودي معلومات مهمة حول بلاد النوبة واتحاد مملكتي نوباتيا ومُقُرة وتسميتهما بالمريس، وأشار إلى أن النوبيين كانوا ماهرين في رمي النبال ومنهم أخذ العرب الرمي بالسهام.٤٦

لم تكن هذه هي كل الكتب التي كتبها المؤرخون والجغرافيون العرب، إلا أنها الأكثر تناولاً للمواضيع الحيوية في تاريخ بلاد النوبة وتاريخ العرب. كيف ما كان الأمر فإن اللغة العربية ساعدت بدور كبير في تدوين فترة مهمة في تاريخ السودان.

## الخاتمة:

نستطيع أن نقول بأن اللغة العربية كان لها أثر واضح في تاريخ بلاد النوبة (السودان)، وذلك من خلال الدور الذي لعبته في حفظ تاريخ النوبة من الضياع، واستطاع المؤلفون العرب كتابة عدد مقدر من الكتب التي تحدثت عن السودان في القرون الوسطى، وكل هذه الكتب دونت باللغة العربية، وإذا ما قورنت الكتب التي تحدثت عن السودان بالغات الأجنبية مع الكتب العربية نجد أن الفارق كبير جداً، وحتى الكتب التي تحدثت عن تاريخ السودان الوسيط باللغات الأجنبية نجدها

أخذت معظم مادتها من المصادر والمراجع العربية. وقد اتضح من خلال الدراسة أن تأثير اللغة العربية على المجتمع النوبي كان تأثيراً واضحاً من الناحية الثقافية. ومن التوصيات التي خرجت بها الدراسة ضرورة تسليط الضوء عل وضع اللغة العربية في السودان، ومدى أهمية هذه اللغة في تاريخ السودان، أيضاً تناول كل المصادر العربية التي تحدثت عن السودان بالتنقيح والتحليل، وتنظيم المعلومات الخاصة بالسودان في تلك الفترة من تاريخه.

## الهوامش:

١ – عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصر، ١٣٨٤هـ/١٩٨٤م، الجزء الأول، صـ ١٨ – ٢١.

٢ – عبد الرحمن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق حامد أحمد الطاهر، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، صـ١١٦.

٣ – أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥م، ٤ أجزاء، الجزء الأول، صـ ٩٣–٩٤.

٤ – أنظر: عبد الهادي الصديق، السودان والأفريقانية، مركز الدراسات الإستراتيجية، الخرطوم الطبعة الأولى، يناير ١٩٩٧م، صـ ٤٧، أبو القاسم بن عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة، المسالك والممالك، إعداد وتقديم خير الدين محمود قيلاوي، دمشق، ١٩٩٩م، صـ ١٢٦.

٥ – الزياتي، الحسن بن الوزان، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرين، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩١٤م، هامش صـ ٢٧، ٣٣، ٣٥، ٧٤.

٦– محمد عوض محمد، السودان الشمالي سكانه وقبائله، القاهرة،١٩٥١،ص،٢٨٤؛مصطفى محمد مسعد،الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة،١٩٦٠، ص ١؛ جيوفاني فانتيني، تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، الخرطوم، ١٩٧٨م، ص ٢٣؛ ابن حوقل (ت ٣٥٠هـ – ٩٥٦م) كتاب صورة الأرض،القسم الأول،في المكتبة السودانية العربية،مجموعة النصوص و الوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى، مطبوعات جامعة القاهرة،١٩٧٢تحقيق مصطفى محمد مسعد، ص،٦٣.

٧ – محمد عوض محمد،المرجع السابق،ص،٢٨٤.

٨ – Monneret de Villard، Storia della Nubia Cristiana،Rome،١٩٣٨.،p.١٥٦.

٩ – القلقشندي،(الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)،صبح الاعشأ في صناعة الإنشأ،ج ١،القاهرة، ١٩٦٣ص،٢٨٢–٢٨٣.

١٠– usuf Fadl Hasan،op.cit،p.١٢.

١١ – مصطفى مسعد،١٩٦٠، المرجع السابق،ص،١٠٦–١٠٧.

١٢ – محمد عوض، السودان ووادي النيل،القاهرة،١٩٥١،ص٢٨.

١٣ – مصطفى مسعد، ١٩٦٠،المرجع السابق،ص،١٠٩.

١٤ – عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، المجلد الثاني، القاهرة، ١٨٧٠،ص،٥٣–٣٦.

١٥ – Yusuf Fadl Hasan ، The Arabs and the Sudan، SUDAT EK Limted، Khartoum، ٢٠١٠.،p.٧٥.

١٦ – مصطفى مسعد،١٩٦٠، المرجع السابق،ص،١١٠.

١٧ – Welsby –،D.، The Medieval Kingdoms of Nubia، the British Museum، Press، ٢٠٠٢.،p.٦٨.

١٨ – Yusuf Fadl Hasan،op.cit،p.١٨.

١٩ – MacMichael، H. A.، A History of the Arabs in the Sudan، Vol ١، Frank Cass & Co.Ltd،١٩٦٧،p.١٥٥.

٢٠ – Ibid،p.١٥٦.

٢١– ابن عبد الحكم،كتاب فتوح مصر واخبارها،فتوح مصر والمغرب، في المكتبة السودانية العربية،مجموعة النصوص و الوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى، مطبوعات جامعة القاهرة،١٩٧٢تحقيق مصطفى محمد مسعد،ص،١٦٩–١٧٠.

٢٢– نفسه،ص،١٦٩–١٧٠.

٢٣ – MacMichael، H. A.، op.cit،p،١٥٧.

٢٤ – ابن الحكم، المرجع السابق،ص، ١٨٨.

٢٥ –Trimingham J.S.، Islam in the Sudan، Geoffrey Cumberlge، Oxford University Press،١٩٦٥.،p.٦٢.Note.٣.

٢٦ – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ، الجزء الرابع، صـ ١٠٩.

٢٧ – المسعودي، المصدر السابق، الجزء الثاني، صـ ٢٣.

٢٨ – مصطفى محمد مسعد، المصدر السابق، صـ١٣٠.

٢٩ – ج. سبنسر ترمنجهام، الإسلام في السودان، ترجمة: فؤاد عكود، المجلس الأعلى للثقافة، الخرطوم،٢٠١١م،ص،٨٨.

٣٠ – Adams،W.Y.، Nubia Corridor to Africa، Allen Lane،London،١٩٧٧،P.٥٥٧.

٣١ –Ibid،p.٥٥٧.

٣٢ ج. سبنسر ترمنجهام، مرجع سابق، ص،٨٩.

٣٣ – Adams،W.Y،op.cit،p.٥٧٦.

٣٤ – مصطفى محمد مسعد، مرجع سابق، ص، ١٦٥.

٣٥ – الشاطر بصيلي عبد الجليل، معالم من تاريخ سودان وادي النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي، مكتبة الشريف الأكاديمية للنشر والتوزيع، الخرطوم، ٢٠٠٩–٢٠١٠م، ص، ٣٩.

٣٦ – مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية العربية، مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى، مطبوعات جامعة القاهرة، ١٩٧٢.ص،٦٢–٧٢.

٣٧ – نفس المرجع، ص،٧.

٣٨ – يوسف فضل حسن، سودان وادي النيل في كتب الرحالة العرب في العصر الوسيط، مجلة دراسات في تاريخ السودان و إفريقيا وبلاد العرب، الجزء الثالث،سوداتك المحدودة، الخرطوم،٢٠٠٨،ص ص،١٠١–١٢٩

٣٩ – مصطفى محمد مسعد، مرجع سابق، ص،٢٩٣.

٤٠– المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن الحسين بن علي،المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار،الجزء الأول،باريس،١٩٠٦.

٤١ – مصطفى محمد مسعد، مرجع سابق، ص،٢٣٤.

٤٢ – نفس المرجع، ص،٣٥٥.

٤٣– البلاذري،أبو العباس أحمد بن يحي بن جابر، ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م كتاب فتوح البلدان، بيروت،١٩٧٨.

٤٤– الإدريسي، (أبي عبد الله ابن محمد ابن عبد الله ابن إدريس)، صفة المغرب وأرض السودان ومصر و الأندلس، لايدن، نابلي،١٩٧٠.

٤٥ – مصطفى محمد مسعد، مرجع سابق، ص،١٢٤.

٤٦ – المسعودي، أبي الحسن علي ابن الحسين ابن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول، بيروت، ١٩٧٣.